تربية الذوق

جزء من الإصلاح الفردى والاجتماعى

هذا العنوان صحيح ، لأن الذوق الجميل دليل على رقى النفس وتهذيب الاحساس ، وكل رقى نفسى وتهذيب حسى يؤديان فى النهاية الى أن يستنكف الفرد من التصرفات المؤذية للمجتمع . وينظر للحياة الشخصية والاجتماعية نظرة عالية تنفر من الشرور والجرائم والرذيلة على وجه العموم .

والفنون الجميلة كالموسيقى والرسم والتصوير والنحت والشعر ذات أثر قوى فى تربية الذوق وتهذيبه والارتفاع به الى مستوى الفضيلة ، وما الفضيلة إلا رقى النفس وترفعها عن الشر والإفساد .

نعم ، إن الفنون لا تخضع لقانون " المنفعة " ، بل لقانون الجمال ، ولكن لها فى النهاية أثرا نفعيا غير مباشر عن طريق تربية الذوق وتهذيبه حتى ينفر من التصرفات المنحطة .

وقلما تعيش الأحقاد والسخائم والحسد فى نفس الفنان المطبوع الأصيل ، وكذلك قلما يطيق الكذب والرياء والنفاق الاجتماعى الذى يطيقه الكثيرون ممن لم تسم الروح الفنية بطباعهم البشرية .

ولكن الفن لا ينهض بأذواق الفنانين وأرواحهم فحسب ، بل هو يعدى من يتذوقون آثارهم ، وهؤلاء لا يرتقون الى تذوقها إلا بعد مراحل من التهذيب والتثقيف تهيئهم للتمتع بالجمال فى آثار الفنانين وفى آثار الطبيعة كذلك .

والإعجاب بالمنظر الجميل واللحن الجميل والصورة الجميلة والعقيدة العالية هو فى حقيقته فضيلة من الفضائل الانسانية ذات " منفعة " اجتماعية لا تقل — إن لم تزد — عن الفضائل المتعارفة ، وعن أى فن تطبيقى من الفنون العملية فى الحياة .

وليس الجمال وتذوقه نافلة على هامش الحياة ، بل هو جزء أصيل فى كيانها " تنتفع " به فى حدود أرقى من حدود " المنفعة " المعروفة فى سوق المبادلات ! وللجمال فائدته كما أن له لذته سواء بسواء .

* * *

و بعد فنحن فى مصر لانهمل شيئا كإهمالنا تربية الذوق الجميل فى كل مكان . فى البيت والمدرسة والطريق ، وفى كل ماتقع عليه عين الطفل منذ نشأته إلى أن تتكون أخلاقه وطباعه.

وقلما نعنى فى البيت بالأزهار فى حجرة الجلوس أو على المائدة ، وقلما نعنى كذلك بالصور الفنية والتماثيل الجميلة أو بعدها جزءا من الأثاث عند تجهيز منازلنا بفاخر الرياش . وتنسيق الأثاث فى حجراتنا تنسيق آلى غالبا ، يلاحظ فيه التناظر والتقسيم الهندسى أكثر مما يلاحظ التوزيع الفنى الذى يدل على ذوق داخلى يتجاوز لأشكال .

وقلما ندرب الأطفال على التطلع إلى تآلف الألوان والأشكال فى الأزهار المختلفة ليؤثر ذلك فى ذوقهم عند اختيار الملابس وقطع الأثاث وأحجامها وألوانها وفى إطارات الصور وتناسبها مع الصورة ثم تناسبها مع قطع الأثاث الأخرى ... الى آخر مايغرس الذوق السليم فى طبائعهم الصغيرة .

أما فى المدرسة ففكرة الحديقة جديدة فى المدارس التى ننشئها ، وكثير من المدارس هى دور عادية مصمتة الجدران لافناء لها ولا حديقة ، وكل مابها حجرات يحشر فيها التلاميذ حشرا . بينما الواقع أن الحديقة لاتقل ضرورة للمدرسة عن المعمل ، لا لتنقية الهواء فقط ولكن لتربية الذوق بمناظرها الجميلة ، وتنمية الملاحظة بمشاهدة الأزهار المختلفة الأسماء والأشكال والروائح ، ودراسة الحياة دراسة عملية فى أحد عوالمها الحية .

وحتى المدارس الجديدة ذات الحدائق ينقص بناءها الجمال لأن تصميمها وضع على أساس التناظر وحده بين أجنحة البناء المختلفة ، مما يجعلها أشبه بالعنابر والسجون ، إذ أن وحدة البناء تتكرر تكرارا مملا بلا تنوع فى الشكل أو الوضع ، ومن ذلك مدرسة بنى سويف ومدرسة دمياط وهى آخر طراز من البناء .

ولا تزال مدارسنا كبيوتنا فقيرة من الصور الفنية والمتاحف عامة ، وهى فى نظرنا لاتقل ضرورة عن المصورات الجغرافية الكثيرة . ولعل مما يحمد لوزارة المعارف إكثارها فى هذه الأيام من صور الحيوان والنبات فى أوضاع ومراحل مختلفة ، مع كتابة نبذة تحت كل صورة بيانا لها . وكذلك صور بعض الأجناس البشرية المختلفة .

ومن الضرورى أن تزداد العناية بمثل هذه الصور التى يتعلم فيها التلاميذ أكثر مما يتعلمون فى حجرات الدراسة دون أن يشعروا ببذل طاقة فكرية معينة ، ويدربون فيها قوة الملاحظة تدريبا لذيذا مفيدا .

ولكن هذا لايغنى عن الصور الفنية والتماثيل المجسمة والمناظر الطبيعية الجميلة التى تخلق حاسة الذوق الفنى وتنميه وتصقلها .

ونحن لم نحاول إلا حديثا أن تكون الكتب التى بأيدى التلاميذ معارض للصور والرسوم الجميلة بجانب أنها خزائن للعلومات والمعارف . وحتى حين عنينا بتجميلها بالصور لم نعن بنفسية الأطفال وميولهم فى اختيارها ، ولم نرتبها حسب القواعد السيكلوجية بحيث نثير بها استطلاع الأطفال وننمى خيالهم ونعلمهم فى وقت واحد .

لى قريب بمدرسة حلوان الثانوية أنعم الله عليه وعلى إخوانه بمدرس للغة الفرنسية جعل من كراسات التلاميذ معرضا فنيا للصور التى يطلب الى التلاميذ الصاقها بكراساتهم بنظام معين أو يمنحها لهم جوائز ومكافآت فى مناسبات خاصة .

حتى لقد خيل الىّ أن هذا الأستاذ يرمى إلى تنمية الذوق الفنى فى نفوس تلاميذه وحسب ، ولكنى علمت أن عنايته بدرسه الأساسى لا تقل عن عنايته بهذا الغرض الجليل .

ومثل هـذا ينبغى أن يكون فى جميع الدروس وفى كل مظهر تقع عليه أعين التلاميذ فى حجراتهم وكراساتهم وكتبهم المدرسية .

وأما الأصوات الجميلة موسيقى وغناء فقد حرمنا الله منها — مع الأسف الشديد — فنحن لا نسمع اليوم فى كل مكان إلا بكاء وعويلا ونواحا دائما ، أو دغدغة وتكسرا وتخلعا ذميما من جميع المطربين والمطربات بلا استثناء ، وحين يشذ مطرب أو مطربة عن هـذه الطريقة فيسمعنا صوت الانسان السليم يعرض عنه الجمهور أو يقلل من بيدهم أمر الإذاعة من حفلاته !

والجمهور معذور فى أن يعرض مؤقتا عن أصحاب الأصوات السليمة والألحان الإنسانية ، لأن أعصابه تخدر باستمرار من سماع النواح والتكسر المريض ولا تترك له فرصة كافية فى الأربع والعشرين ساعة ليفيق من هذا التخدير ، فطبيعى بعد هذا أن يعرض عن الصوت أو اللحن الذى ينبهه ، وأن يطالب بمخدر جديد يفسح له فى مدى الخيالات والتصورات المريضة ، كما يصنع مدمنو المخدرات سواء بسواء .

وحالة التحدير ليست هى الحالة الطبيعية للجمهور ، فلا ينبغى أن يتخذ ذوقه فى أثنائها مقياسا ، ولا بد أن نغذيه بمبهات وموقظات إن لم يطقها أول الأمر فإنه يستحسنها عنـد ما يفيق !

وأما المناظر التى تقع عليها أبصار أطفالنا وكبارنا فى غير المدرسة والبيت فهى أسوأ أثرا فى أذواقهم وأشد إفسادا ، وحسبنا أن جمال الهندسة المعمارية مفقود فى مبانينا وشوارعنا حتى فى الأحياء الراقية التى أنشئت حسبما تتفق بدون تصميم مقصود ولا طراز معروف .

ولا أريد أن أصف أكوام القمامة والأتربة ومخلفات المنازل المهدمة والتلال التى تصنعها مصلحة التنظيم وشركة المياه وشركة النور كلما عنّ لإحداها أن تقوم بعمل من أعمالها

فى المجارى أو فى أنابيب المياه وأسلاك الكهرباء ، فتلك مناظر مألوفة لا تخلو منها القاهرة والمدن الكبرى فى يوم من الأيام ، وكأنها حفر وأكوام نموذجية تحرص هذه المصالح والشركات على بقائها معروضة دائما للأنظار ! ! !

ولا يهمنى هنا أن أعدد المضار الصحية لهذه القذارات ، ولكنى فى معرض تأثيرها فى الذوق العام ، ودعوتها المارة إلى زيادة التوسيخ بإلقاء قشور الفاكهة والأوراق الممزقة ومصاصة القصب الذى لا يستحى الكثيرون من مصه وهم سائرون !

وكذلك لن أتعرض لعشرات الأزياء التى تقع عليها العين فى كل مكان وما يوحيه منظرها من تشويه عام فقد تكون هذه التشكيلات العجيبة أثرا من آثار فساد الذوق يحتفى عند ما يرتفع ذوقنا عن هذا المستوى الغريب .

* * *

إننا نهمل إهمالا شنيعا فى كل المؤثرات التى ينشأ الذوق الفردى والذوق العام من الاستجابة المتكررة لها . وليس الذوق السليم ترفا ولا شيئا كماليا ، بل تنبغى العناية به كالعناية بشئون الطعام والشراب . فذلك الذوق هو أول ما يفرق الإنسان من الحيوان .

وهل يمكن تفسير إهمالنا لمناظرنا الطبيعية الجميلة التى يفتن بها الأجانب إلا بنقص تربيتنا الذوقية . لقد وقف مستر إيدن يشاهد منظر غروب الشمس فى النيل من قصر النيل فأخذ وقال بدهشة " هذا أجمل منظر رأته عيناى " ومما رأته عيناه مناظر سويسرا الخلابة التى يفتن بها السائحون .

ولكن الجمال الطبيعى فى مصر جمال ساذج فطرى لم نحاول تعميقه أو الانتفاع به . ولو كان النيل وشطآنه الطويلة فى أى بلد من بلاد العالم لأحالوه جنة لا مثيل لها فى الأرض قاطبة .

وعدم العناية بشواطئ النيل يسبب لنا خسارة مالية من وجهة السياحة . وذلك ضرر آخر منشؤه إهمال تربية الأذواق . وهو على فداحته أقل من أن نعيش فى مهد الجمال دون أن تلتذ أرواحنا بتذوقه والتطلع إليه .

« س . . . »